المحاضرة الخامسة
بناء مدينة بغداد

أنصرف اهتمام المنصور الى تشييد حاضرة جديدة للدولة وكان قد شرع في ذلك عقب توليه الخلافة مباشرة فتقول النصوص أنه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة وكان السفاح قد استقر في الأنبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في اول عهده ولما كانت الهاشمية على الضفة اليسرى للفرات فأنها وكانت قريبة من الكوفة والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الأموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات على أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان قفر خال من السكان بل أن الكتاب يذكرون عدد من الأماكن العامرة بالقرب منها يذكرون من بين هذه الأماكن بغداد على الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

وأسم بغداد يعني " عطية الله " وتقول النصوص ايضا أن المنصور عندما بناها سماها " مدينة السلام " وكان يطلق على المدينة ايضا اسم المنصورية وذلك نسبة الى بانيها كذلك عرفت بالزوراء .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موفقا وذلك أن ازدهار المنطقة يرجع الى مركزها الممتاز من نواحي كثيرة . فالأرض في هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة والفرات في ذلك الموضع الذي تضيق به المسافة بين النهريين فكان يمكن تهيئة وسائل الري فيها بسهولة عن طريق القنوات التي تصل بين النهريين والتي كانت صالحة للملاحة . ووجود هذه القنوات أن يجعل المدينة في موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية أنه قيل للمنصور عندما أختار هذا الموضع " انت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر او قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القنطرة لم يصل اليك . ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد وانت قريب من البر والبحر والجبل.

ووضع المنصور بيده أول لبنة في بناء المدينة في سنة 145هـ وقال " بسم الله والحمد لله والارض يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ثم قال أبنوا على بركة الله ".

وبعد تخطيط المدينة ، وبلوغ السور مقدار قامة ، قامت الثورة العلوية في المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه اليها وترك البناء حتى تم له القضاء على النفس الزكية وأخيه ابراهيم .

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصناع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم وأشرف على البناء وحساب النفقات قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه وذوي الأمانة والمعرفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير أبو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي .

قسمت المدينة الى اربعة مناطق تسمى ارباع وذلك تحت أشراف اربعة من القواد يسهرون على العمل الذي استمر طوال اربع سنوات وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلته تتسع في شكل دائري فالنص يقول " وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الى السلطان من بعض وبدئ ببناء قصر الخليفة في وسطها ، والى جانب القصر بني المسجد الجامع ويفهم من النصوص أن مدينة المدائن القديمة أمدت بغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التي قامت عليها . حول نواة المدينة أي حول القصر والجامع تجمعت بغداد في شكل دائري وقسمت الى أحياء منفصلة تخترق هذه الأحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها 40 ذراعا واتسعت المدينة وعملت فيها مجاري المياه ، وأقيمت فوقها القناطر وأنشئت الصهاريج ، وحصنت المدينة تحصينا قويا حتى تكون الاقامة فيها مأمونة ثم أحيطت بسورين أحدهما من الداخل والأخر خارجي ، وكان السور الداخلي أعلى من السور الخارجي . وكانت المنطقة بين السورين تسمى الفصيل وجعل للمدينة أربعة أبواب المسافة بين كل باب من أبوابها والباب الذي يليه تقدر بميل من هذه الأبواب باب خراسان وكان يسمى باب الدولة لأقبال الدولة العباسية من خراسان وهو في المشرق وباب الكوفة في اتجاه الكوفة وفي اتجاه الحجاز وفي الغرب باب الشام وفي اتجاه الجنوب باب البصرة ، وهو يوصل الى منطقة الأهواز وفارس ويقال أن المنصور لم يصنع للمدينة أبوابا جديدة ولكنها استجلبت لها أبواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذي صنعه المنصور وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التي تموج بالسكان وبني بعد الانتهاء من المدينة المدورة وخارج أسوارها الشرقية قصرا ثانيا وهو قصر الخلد وحدث شغب بين أهل السوق فأضطر الخليفة أن يخرج أهل الأسواق من المدينة وأن يسكنهم في منطقة الكرخ في الجنوب وبني ايضا المنصور الجزء الشرقي من بغداد وأنشأ في هذا المكان الجديد شمال القصر الذي خصص ليكون معسكرا لولي العهد المهدي قصر " الرصافة " . ووزعت الأراضي المحيطة بالمدينة كأقطاعات لأقارب المنصور ولمواليه ولكبار رجال الحاشية .

ومن هذا الوصف يمكن أن نرجح أن المنصور عندما بني مدينته كان يهدف الى بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيدا عن مدينة الكوفة بمعنى أن نشأة بغداد كانت أشبه ما تكون بنشأة المدن التي بنيت في صدر الاسلام مثل : البصرة والفسطاط والقيروان التي أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربي في تلك الأقاليم .

- ***بعض مظاهر نظم الدولة***

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الأمويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الأمام وكلمة الأمام هنا لها معنى دينيا أكثر من كلمة الخليفة القريبة من السلطة الدنيوية .

وعمل العباسيون على تأكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون البردة التي كان يلبسها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) وهذا في الوقت الذي عهد فيه بجزء كبير من سلطانهم الزمني الى الوزير ووظيفة الوزير تعتبر تجديدا عباسيا فيما يتعلق بإدارة الدولة وذلك أن اللقب لم يعرف عند الأمويين قبل ذلك ،كان اللقب عند الأمويين هو لقب الكاتب وأحاط الخليفة العباسي نفسه بمظاهر الأبهة والعظمة .

أما عن البلاط العباسي ، فكان يظهر فيه الى جانب أفراد الأسرة ، و طبقة الأعيان الى جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي ، كما كان هناك القراء والفقهاء والأطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون كل هذا يعني أن خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل أصبح يتشبه بملوك فارس .وقياصرة الروم.

وأصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هي السمة المميزة لأصحاب الرتب الكبيرة وكذلك القلانس الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .
واذا كان الأمويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذي ينظم مقابلات الخليفة فأن الخليفة العباسي أصبح بعيدا كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عددا مع مرور الوقت .

والى المنصور يرجع الفضل في وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ على النظام الساساني والبيزنطي الذي كان معمولا به على أيام الأمويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح على كل ولاية عامل او وال وكان لأفراد الأسرة نصيب كبير من هذه الولايات .

- ***البريد***

وبفضل نظام البريد الذي عرفه الأمويون والذي توسع فيه المنصور أستطاع الخليفة أن يفرض رقابة شديدة على أدارة الولايات المختلفة .
وكان على أصحاب البريد أن يقوموا بكل الاستعلامات رغم أن عملهم كان يرتكز في أمداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة بأداء مهام وظائفهم في أعمالهم . وكانت تقارير أصحاب البريد لها أهمية خاصة فعن طريق هذه التقارير كان تعرف حال المحاصيل فتتخذ الإجراءات السياسية المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جدب وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذي أستقى منه علماء الجغرافية معلوماتهم فيما بعد.

- ***الفقه :***

وضم المنصور الى بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه . وكان تقريب الفقهاء يعني أن الدولة المثالية التي تعتنى بنشر العدل والشرع أصبحت حقيقة واقعة .

وفي ذلك الوقت كان مؤسسا المذهبين الكبيرين المذهب الحنفي والمذهب المالكي على قيد الحياة كانا يميلان الى العلويين يقال أن أبا حنيفة كان يميل الى ابراهيم بن عبد الله عندما قام بثورته في البصرة .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالي عاش أبو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير ، وتوفي في سنة 150هـ في بغداد وكان قد قام بإلقاء الدروس في الكوفة وكانت له آرائه الفقهية وتتميز مدرسته في التوسع في استعمال " الرأي " وكذلك القياس . ويعد أبو حنيفة من تلاميذ الأمام الصادق (عليه السلام) فكان يقول لولا السنتان لهلك النعمان .

أما عن مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي بالمدينة فقد عرف بميله للعلويين ايضا ، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب وذلك بعد أن فشلت ثورة النفس الزكية . ولكن الخلفاء سيقدرون مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند أداء فريضة الحج وذلك قبل موته بقليل بينما كان أتباع مالك ينشرون مذهبهم في بلاد المغرب والأندلس ، دخل الحنفيون في خدمة الدولة وعملوا على نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف " أحد تلاميذ أبو حنيفة " منصب قاضي القضاة ، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب الرسمي .

ومدرسة مالك بن أنس مبنية على الأحاديث وذلك بسبب وجوده في مدينة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) واهتمامهم بالمتن اكثر من اهتمامه بالإسناد وهو علاوة على اتخاذ القرآن والسنة كأصليين للتشريع يضيف إليهما ما تعارف عليه أهل المدينة أي أنه يرى أن الإجماع هو أجماع أهل المدينة .

فتنة الموصل سنة 158هـ :

وبتأسيس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور أهتم اهتماما كبيرا بتأمين وصيانة حدود دولته فعمل على تعقب الخارجين والقضاء عليهم فأن هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام ثورات في كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة 158 هـ والقلاقل التي أثارها الاكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك على الموصل فقهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس .

ثورة أستاذ سيس :

قامت في خراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم أستاذ سيس وذلك في سنة 150 هـ وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك الثورات التي قامت بالمشرق . فقيل أن هذا الرجل أدعى النبوة وأن أصحابه أظهروا الفسق وقطع السبيل وأنضم الى جانب هذا الرجل كثير من الأتباع " وغلب على عامة خراسان " وأستطاع أن يوقع هزيمة بعدد من الجيوش العباسية ، ولكن أمره أنتهى بالهزيمة بعد أن سبب للدولة متاعب كثيرة .

السياسة الخارجية

-الحرب ضد بيزنطة :

أما عن السياسة الخارجية فأنها كانت تتلخص في الصراع الذي أصبح تقليديا بين الاسلام وبين الدولة البيزنطية ، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت على اربع قرون هي التي بدأت بالتوسع الاسلامي وانتهت سنة 595هـ بالحروب الصليبية ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطيع احد اطرافها أن يحرز اثناءها انتصارا حاسما وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصرا من القوة على ايام الأباطرة الايسوريين وكان هذا من أسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن أتت مسألة النزاع الداخلي في بيزنطة من أجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التي تلتها فضعفت من قوة بيزنطة وهكذا كانت الفرصة مواتية للمنصور في سنة 149هـ كي يوجه هجوما ضد البيزنطيين .

والحقيقة أن الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماما من جانب الخلافة كما أن الخلافة كانت اقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الافرنج على هذه الحرب اسم " حرب العظمة " فهو يرى أن هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الاسلام كان عليه أن يشعر دولة الكفار بسطوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الاسلامية بتلك الحملات التي تعرف باسم " الصوائف والشواتي " وهو يرى أن المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الاسلام كانت توجب قيام اتفاق ودي بين الطرفين .

وعلى اية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة هي المنطقة المحاذية لجبال طوروس في الشرق وهي المنطقة التي عرفت عند الكتاب باسم " العواصم " أو " الثغور " ومعناها الحد الذي يفصل بين دولة الاسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ في الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع ، وهذه القواعد مدنا اغريقية قديمة جددها العرب واعادوا بناءها وحولوها الى حصون وأهم هذه الحصون أدنة وطرطوس والمصيصة وسميساط وملطية ، ومرج دابق ، وخلف هذه القلاع كانت تمتد اقاليم اسية الصغرى وهي أرض الروم وهذه الأرض كانت هدف القوات الاسلامية خلال الصوائف والشواتي ترهب بها الأعداء وترجع بالسبي والمغانم أما عن الهدف الحقيقي للجيوش الاسلامية فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية ولكن قوات الاسلام لم تستطيع تحقيق الاستيلاء على القسطنطينية .

والذي يلاحظ هو أن الصوائف لم تكن تذهب على أيام المنصور الى بيزنطة اذا كان العسكر منشغلين في اخماد ثورة .... تقول الرواية في سنة 137هـ
" ولم يكن للناس في هذه السنة صائفة لشغل السلطان بحرب سنباذ " .

ولهذا السبب نجد أنه في السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من أخذ ملطية ويهدم أسوارها ولكن المسلمين استطاعوا أن يستعيدوها وعادوا بناءها وعمروها.
وبعد ذلك عقدت معاهدة في سنة 139هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلى ذلك فلم تعد الغارات الا في سنة 146هـ بعد أن انتهى المنصور من حرب العلويين .

- خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدي

أضطر عيسى في سنة 147هـ أن يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور أستعمل فيه الكثير من الأساليب العنيفة وأخذ المنصور لابنه المهدي بدلا من عيسى الذي اصبح يلي المهدي في ولاية العهد وتقول الرواية أن عيسى قال " أنا ذا أشهد أن نسائي طوالق ومماليكي احرار وما املك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين " .
ويقال أن الناس تندروا بعد ذلك بقولهم : " هذا الذي كان غدا فصار بعد غد "

المنصور والعلويين

كان المنصور يخشى طموح العلويين ، وما أن تسلم الخلافة حتى مضى في استطلاع اخبارهم ورغم كل القسوة والمرارة والظلم الأموي الفظيع ، الا أن النصوص تؤكد أنه دون ما انزله بنو العباس بأهل البيت (عليهم السلام) حتى قيل في ذلك : (يا ليت جور بني أمية دام لنا وليت عدل بني العباس في النار) ولو أردنا أن نقايس بين أعمال الدولتين فلا نجد للأمويين حدثا في الاساءة لأهل البيت (عليهم السلام) والعلويون الا وللعباسيين مثله مضاعفا ، وزاد العباسيون أن اختصوا بأشياء من جرائمهم مع العلويين لم يكن للأمويين ، مثلها كجعلهم العلويين بالأبنية والأسطوانات حتى جعل المنصور اساس بغداد عليها ، فقد ذكر الطبري أن الدوانيقي أمر بإحضار

محمد بن ابراهيم وكان آية في بهاء وجهه وجماله ولما حضر عند المنصور التفت اليه بسخرية قائلا : أنت المسمى بالديباج الأصفر ؟ فقال نعم . فقال له : أما والله لأقتلنك قتلة ما قتلها احدا من أهل بيتك ثم امر بأسطوانة مبنية ففرغت ، وادخل فيها ، فبنيت عليه وهو حي .

وذكر أبو بكر الخوارزمي في وصفة لجرائم العباسيين تجاه العلويين في فقرة من فقرات ظلمهم الكثيرة المتطاولة ، اذ قال : (الى أن مات وقد امتلئت سجونه بأهل بيت الرسالة ومعدن الطيب والطهارة ، وقد تتبع غائبهم وتلقط حاضرهم ...))
وهناك نماذج وعينات من اعترافات العباسيين انفسهم بجرائمهم أو على لسان ولاتهم ، فهذا المنصور في فورة من فورات حقده الاسود على أهل البيت (عليهم السلام) وقد عزم يوما على قتل الأمام الصادق (عليه السلام) قال : (... قتلت من ذرية فاطمة الفا او يزيدون ، وتركت سيدهم ومولاهم وأمامهم جعفر بن محمد ...) .

وهو الذي قال مشافهة للأمام الصادق (عليه السلام) : (لأقتلنك ولأقتلن اهلك حتى لا ابقي على الارض منك قامة سيف ولا ضربن المدينة حتى لا أترك فيها جدارا قائما ...) .
وفي خبر أخر عن الدوانيقي أنه حين أستدعى الأمام الصادق (عليه السلام) مرة ليقتله قال لخواصه : (والله لا اتركن لهم نخلا الا عقرته ، ولا مالا الا نهبته ، ولا ذرية الا سبيتها ...)
وذكر الطبري : (أن المنصور هذا ترك خزانة رؤوس ميراثا لولده المهدي كلها من العلويين ، وقد علق بكل رأس ورقة كتب فيها ما يستدل به على صاحبه ومن بينها رؤوس شيوخ وشبان واطفال ...)

والمنصور هذا هو الذي كان يضع العلويين في المطبق (سجن مغلق ومظلم ويتركهم يموتون جوعا ، وكان يموت أحدهم فيترك معهم حتى يبلى من غير دفن ، ثم يهدم المطبق على من تبقى منهم وهم في اغلالهم ، وممن تعرض لهذه الميتة عبد الله بن الحسن .

ومع كل هذا وسواه بقي أهل البيت (عليهم السلام) وشيعتهم ، يمارسون ادوارهم السياسية بكل صدق وأمانة ، ولا يترددون عن الموقف الرسالي وكلمة الحق الصادقة ووسط تلك الظروف والمحن يكتب المنصور مرة الى الأمام جعفر الصادق (عليه السلام) قائلا : (لم لا تغشانا كما تغشانا الناس ؟ فيجيبه الأمام الصادق (عليه السلام) .

" ليس لنا ما نخافك من اجله . ولا عندك من أمر الاخرة ما نرجوك له ولا انت في نعمة فنهنيك ، ولا نراها نقمة فنعزيك فما نصنع عندك ؟ ..." فكتب اليه : تصحبنا لتنصحنا فيجيبه الأمام : من أراد الدنيا لا ينصحك . ومن أراد الاخرة لا يصحبك ... .

- المنصور يأمر بإحراق دار الأمام الصادق (عليه السلام)

وجه أبو جعفر المنصور الى الحسن بن زيد وهو والية على الحرمين أن احراق على جعفر بن محمد (عليهما السلام) دارة .
فألقى النار في دارة فأخذت النار في الباب والدهليز ، فخرج أبو عبد الله (عليه السلام) يتخطى النار ويمشي فيها ويقول ((انا أبن أعراق الثرى ، انا ابن ابراهيم خليل الله " عليه السلام ")) .

وفاة المنصور

وفي شهر ذي الحجة من سنة 158هـ توفي المنصور وكان في طريقه الى الحج بالقرب من مكة .